تغيرات الخريطة السورية من العهد العثماني حتى اليوم

دراسة صادرة عن مركز إدراك للدراسات والاستشارات

إعداد: معاذ محارب

مركز إدراك للدراسات والاستشارات

تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٧



فهرس المحتويات:

فهرس الخرائط:

مقدمة

يعيش السوريون على بقعة جغرافية تتمتع بحساسية سياسية وأمنية واقتصادية عالية، دفعت كل القوى العالمية على اختلاف العصور إلى الاهتمام بها وفرض رؤيتها عليها، ما أنتج على مر السنين كيانات جغرافية وسياسية تختلف أو تتناقض في أهدافها، لكنها تتفق قسراً على أنه لا يمكن تجاوز أهل الأرض الأصليين الذين كان لهم يد عليا، برغم كسرها أحياناً، في رسم مستقبلها، وهذا ما سيتضح في مفاصل الدراسة التي تعرض جغرافيات سوريا السياسية، والعوامل الداخلية والخارجية المؤثرة فيها بدءاً من نهاية المرحلة العثمانية، مروراً بالحكم الفيصلي وحكم الانتداب، وصولاً إلى مرحلة الاستقلال وما بعده.

التسمية والامتداد الجغرافي

أصل لفظة "سوريا" سرياني، وكتابة سوريا بالألف الممدودة جائزة وكتابتها بالتاء المربوطة جائزة، واعتماد التاء المربوطة أتى لتعزيز عربية اللفظ والابتعاد به عن سريانيته صاحبة الألف الممدودة.

بالنسبة للياء يجوز تشديدها على اعتبار تعريب اللفظ ومعاملته معاملة الاسم المنسوب المؤنث، لكن الأصل هو تخفيفها لتصبح " سورية" بضم السين وكسر الراء المهملة وتخفيف الياء وفتحها[١].

والشام أو الشآم اسم أطلقه العرب منذ القرن الرابع أو الخامس للميلاد على الأراضي الممتدة من نهر الفرات شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، ومن جبال طوروس شمالاً إلى مشارف صحراء سيناء جنوباً.

أي إن الشام وفق التقسيمات التي أنتجتها الحالة الاستعمارية للمنطقة تشمل سوريا ولبنان وفلسطين والأردن وأجزاء من تركيا هي عنتاب ومرعش وسيس وأضنة وإسكندرونة[٢] .

يتفق مع هذا الرأي ما أورده المؤرخ محمد كرد علي من أن "الشأم والشآم والشام اسم للقطر السوري، وسورية اسم غلب إطلاقه على القطر الشامي على عهد الإسكندر مقتضباً مع تخفيفه من اسم آشوري لغلبة الآشوريين عليه، والسين والشين تتعاوران في اللغات السامية"[٣].

يقول البلاذري إنه لما بلغ هرقل خبر أهل اليرموك وإيقاع المسلمين بجنده هرب من أنطاكية إلى قسطنطينية، فلما جاوز الدرب قال: "عليك يا سورية السلام ونعم البلد هذا للعدو". يعني أرض الشام لكثرة مراعيها[٤].

[١] منتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية - ركن الفتاوى اللغوية - أنت تسأل والمجمع يجيب: ٢٠١٤\٩\٧، الرابط: https://goo.gl/DEGpUC

[٢] إيالة دمشق دراسة توثيقية نقدية في مخطوط رسالة جغرافية بلاد الشام للعالم الأديب رفاعة الطهطاوي: محمد يسار عابدين، جامعة دمشق، أيار ٢٠٠٨م، ص ٨٢، الرابط: https://goo.gl/Um5eKh

[٣] خطط الشام: محمد كرد علي، مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م، ١\٧.

[٤] فتوح البلدان: أحمد بن يحيى البلاذري، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٨م، ص ١٣٨.

المرحلة العثمانية

ما حدث في سوريا خلال الحقبة العثمانية ظل غير محدد بدقة، واكتنف الغموض كثيراً من المفاصل، غير أن الأمر اختلف مع إنشاء مركز الأبحاث للتاريخ والثقافة والفنون الإسلامية "ارسيكا" عام ١٩٨٠م في مدينة إسطنبول التركية، وهو تابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي.

أصدر المركز، بالاشتراك مع رئاسة دائرة الأرشيف العثماني مجلد "سوريا في الوثائق العثمانية"، وفيه وثائق عثمانية تشرح معظم نواحي الحياة السورية خلال الحكم التركي، إضافة إلى عشرات الصور والخرائط النادرة، ما ساهم بشكل كبير في إزالة كثير من الالتباس ودحض الآراء مسبقة الصنع عن الحقبة العثمانية.

عندما دخل السلطان سليم بلاد الشام عام ١٥١٦م أبقى على التقسيمات الإدارية التي كانت في العهد المملوكي، وهي ست نيابات: نيابة الشام ونيابة حلب ونيابة طرابلس ونيابة حماة ونيابة صفد ونيابة الكرك. كما ترك العثمانيون الحكم في سوريا للأمير المملوكي جان بردي الغزالي، الذي خان ملكه قانصوه الغوري في معركة مرج دابق، لكن بعد تمرده الفاشل في ١٥٢٠م شرع السلطان سليمان القانوني في وضع نظام جديد لإدارة بلاد الشام، ليتم تقسيمها إدرايأ إلى ثلاث وحدات[٥]:

١ ولاية دمشق وشملت عشرة ألوية "سناجق".

٢ ولاية حلب وشملت تسعة ألوية.

٣ ولاية طرابلس وشملت خمسة ألوية.

في عهد السلطان مراد الثالث ١٥٧٤-١٥٩٥م قسمت بلاد الشام إدارياً بناء على التقسيم الجديد للإمبراطورية العثمانية إلى الباشويات أو الإيالات التالية، وكل إيالة يتبعها عدد من السناجق[٦]:

١ باشوية الشام أو دمشق.

٢ باشوية حلب.

٣ باشوية طرابلس.

بقي هذا التقسيم قائماً حتى سنة ١٦٦٠م حيث أحدثت إيالة صيدا للسيطرة على التحركات الدرزية المسلحة في جبل لبنان.

دخلت بلاد الشام القرن الثامن عشر وكانت مقسمة إدارياً على النحو الآتي[٧]:

١- إيالة حلب: ومركزها حلب. وضمت الألوية التالية: أضنة، باليس، بيره جك، حلب، إعزاز، كليس، معرة النعمان.

---

[٥] الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ - ١٩١٤م: عبد العزيز محمد عوض، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، ص ٦١.

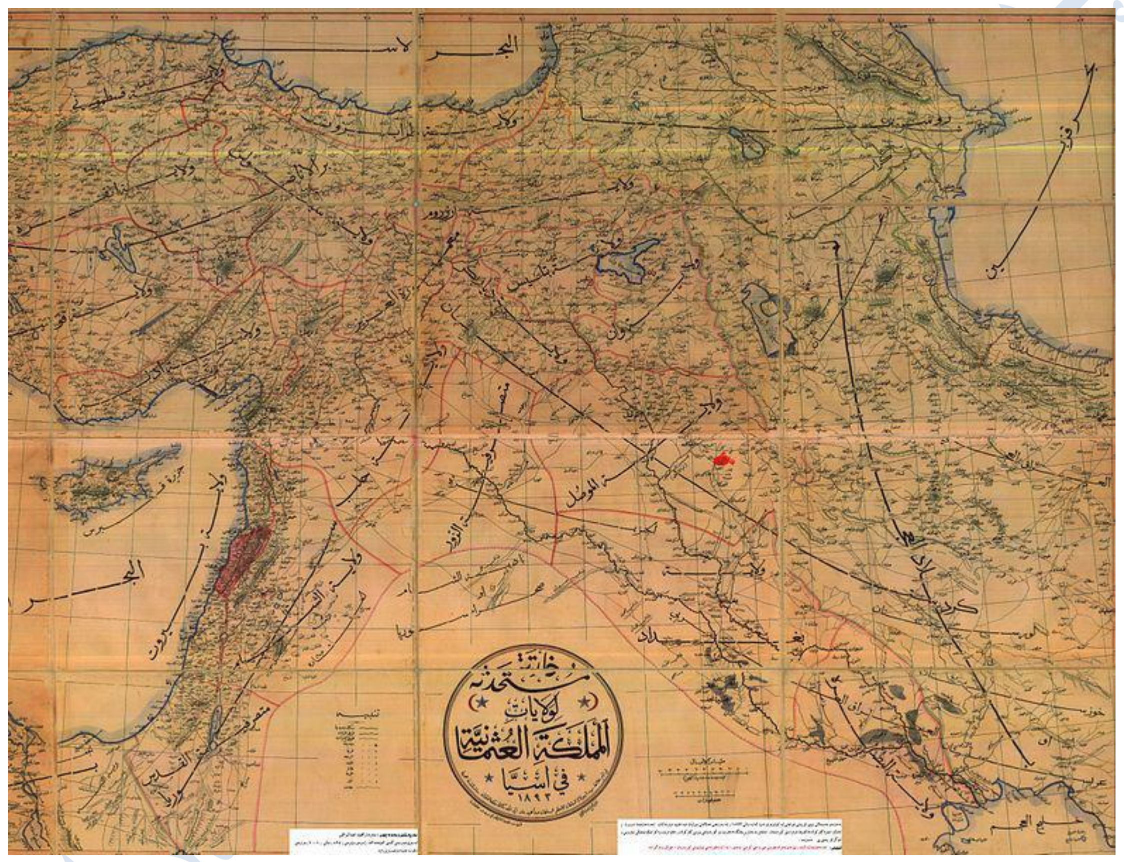
[٦] المصدر السابق: ص ٦٢.

[٧] المصدر السابق: ص ٦٣.

٢ - إيالة الشام: ومركزها دمشق. وضمت الألوية التالية: دمشق، القدس، غزة، نابلس، عجلون، صفد، صيدا، بيروت، الكرك، الشوبك.

٣- إيالة طرابلس: ومركزها طرابلس. وضمت الألوية التالية: طرابلس، حمص، حماة، السلمية، جبلة.

يلاحظ اختفاء إيالة صيدا بعد دمجها مع إيالة الشام ١٨٦٥م، ليشكل العثمانيون ولاية جديدة أسموها ولاية سوريا، تضم بالتقسيم الحالي معظم سوريا وفلسطين والأردن، وكان الأتراك يتعاملون مع بلاد الشام بالمجمل على اعتبارها ولاية واحدة أسموها ولاية الشام العربية، وقسموها إدارياً إلى التقسيمات السابقة. ولم يتم كسر هذا البناء العثماني إلا عندما خضعت بلاد الشام للحكم المصري ١٨٣١م- ١٨٤١م.



الخريطة (١): التقسيم الإداري لسوريا في العهد العثماني - أرشيف صور الدولة العثمانية

قاد إبراهيم باشا حملة عسكرية على سوريا بين ١٨٣١-١٨٣٢م، وكاد يصل إلى إسطنبول نفسها، ثم دخلت الشام في حكم الدولة المصرية بعد صلح كوتاهية.

اعتُبرت بلاد الشام ولاية واحدة، قسمت إلى ألوية عاصمتها جميعاً دمشق، وقام إبراهيم باشا في ١٨٣١م بتعيين متسلمين على المدن الساحلية مثل بيروت وطرابلس وصيدا، وربطهم به مباشرة. ثم في عام ١٨٣٢م عين محمد علي شريف باشا حاكماً عاماً "حكمدار" على جميع إيالات بر الشام باستثناء جبل لبنان.

هذه الولاية الواحدة لم تصمد طويلاً نتيجة الثورات المستمرة، فاضطر المصريون إلى التقسيمات الإدارية العثمانية، لتكون بلاد الشام في نهاية العهد المصري مقسمة إلى إيالات الشام وحلب وصيدا وطرابلس ويافا وأضنة[٨].

بعد رحيل المصريين عن سوريا عاد العثمانيون إليها، وعادت معهم تقسيماتهم الإدارية. واستمر الوضع على ما هو عليه حتى عام ١٨٦٤م حين صدر نظام الولايات، واشترك في وضعه فؤاد باشا ومدحت باشا. وبموجب القانون قسمت الإمبراطورية إلى ثلاثين ولاية، بعد أن ضمت ولايات إلى أخرى وشكلت ولايات جديدة[٩].

تشكلت ولاية سوريا في عام ١٨٦٥م، واستمر هذا الاسم حتى نهاية العهد العثماني، وفي عام ١٨٧٦م عين مدحت باشا أو " أبو الدستور" والياً عليها.

رفع مدحت باشا تقريراً في عام ١٨٧٩م يتحدث فيه عن ضرورة إجراء إصلاحات في الولاية "التي تعاني من الضعف الإداري؛ نتيجة للتغيرات السياسية والحروب، مع الأخذ بعين الاعتبار أوضاع المسلمين والمسيحيين والدروز والنصيرية والمتاولة وطبائع وعادات العشائر"[١٠].

في تقرير مدحت باشا عن ولاية سوريا يقول إنها "أوسع من غيرها من ولايات الدولة، وإن أهلها هم من العرب والأتراك والتركمان والدروز والنصيرية والروم والموارنة والكاثوليك والبروتستنت والسريان والأرمن. ويتألف من هؤلاء شعب عدده أربعة وعشرون نوعاً من الملل والأديان والمذاهب، ينضم إليهم الجزائريون والشراكسة والتتار وغيرهم من المهاجرين. وإن إدارة هذه الأجناس المختلفة على قاعدة واحدة وما تولده من مشاكل غني عن التعريف والإيضاح"[١١] .

بلغت ولاية سوريا أقصى اتساع لها عام ١٨٧٨م حيث ضمت ثمانية ألوية وثمانية وعشرين قضاء، لكن بعد مضي سنوات قليلة في سنة ١٨٨٧م تحديداً تعرضت للانكماش، حين انفصلت عنها كل من ألوية بيروت وعكا ونابلس وطرابلس واللاذقية، لتشكل هذه الألوية ولاية "بيروت الجديدة."[١٢]

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حظيت سوريا بولاة أقوياء ذوي أثر جيد، مثل محمد راشد باشا ومدحت باشا. وقد اعتاد هؤلاء الولاة على رفع تقارير مفصلة للباب العالي، تتضمن أهم الحوادث في سوريا ودسائس القناصل الأجانب، كذلك احتوت تقاريرهم على اقتراحات بإصلاح طائفتي الدروز والنصيرية"[١٣].

الأسابيع الأخيرة للحكم العثماني في سوريا تكشف أن الباب العالي كان لا يزال يفرق بين موقف الشريف حسين، الذي أعلن الثورة العربية الكبرى بالاتفاق مع الإنجليز، وموقف ابنه الأمير فيصل الذي حاولت الأستانة كسب ولائه عبر واليها على سوريا تحسين بك. رغم أن تحسين بك أخبر الباب العالي بدخول قوات الشريف حسين والقوات الإنجليزية إلى دمشق، وأن العمل لم يعد ممكناً بعد اليوم في سوريا.

---

[٨] المصدر السابق: ص ٦٣- ٦٤.
[٩] المصدر السابق: ص ٦٦.
[١٠] سورية العثمانية وأسرارها: محمد م. الأرناؤوط، موقع العربي الجديد، ١٢\٤\٢٠١٥، الرابط: https://goo.gl/dRzuvY
[١١] الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤م: مصدر سابق، ص ٨٤.
[١٢] المصدر السابق: ص ٧٢- ٨١.
[١٣] المصدر السابق: ص ٨٧.

هذا الطلب بالتفاوض مع الأمير فيصل جاء في آخر الوقت بدل الضائع تماماً، حيث دخلت القوات الإنجليزية حلب لتنهي الحكم العثماني في سوريا بعد أربعة قرون وسنتين (١٥١٦-١٩١٨م)[١٤]

اتفاقية سايكس بيكو

دخلت بلاد الشام بعد خروجها من الحكم العثماني في عصر اتفاقية سايكس بيكو، وهي اتفاقية وقعت بين فرنسا وبريطانيا وروسيا على اقتسام المنطقة العربية الواقعة شرقي المتوسط عام ١٩١٦م. وتم التوصل إليها بين نيسان/أبريل وأيار/مايو من ذلك العام، على صورة تبادل وثائق بين وزارات خارجية الدول الثلاث فرنسا وإنجلترا وروسيا القيصرية، وذلك لتحديد مناطق نفوذ كل دولة.

جُزئت سوريا بموجب الاتفاقية إلى خمسة أجزاء:

.الجزء الساحلي من سوريا الشمالية، اعتباراً من رأس الناقورة جنوباً حتى الحدود الطبيعية الشمالية، وضع تحت الإدارة الفرنسية.

.الجزء الداخلي من سوريا الشمالية، عُدَّ منطقة نفوذ فرنسية (أ).

.الجزء الساحلي من سوريا الجنوبية، أو فلسطين، جُعل تحت إدارة دولية.

.الجزء الداخلي من سوريا الجنوبية، أي شرق الأردن، جعل منطقة نفوذ بريطانية (ب) تتصل بمنطقة النفوذ البريطانية في العراق.

.مرفآ عكا وحيفا أُعطيا لبريطانيا، مع حق المرور الحر للتجارة الفرنسية عبر المرفأ الأخير إلى جنوبي سوريا الشمالية؛ أي إلى منطقة حوران، أو إلى فلسطين. وفي المقابل أُعطي حق المرور الحر للتجارة البريطانية في مرفأ الإسكندرونة إلى سورية الشمالية، وهو المرفأ المدار من قبل فرنسا[١٥].

اتفاقية سايكس بيكو لم تكن وليدة الحرب العالمية الأولى، ولم تكن خبط عشواء، إنما أتت حصيلة تراكمات استعمارية بدأت منذ القرن الثامن عشر، تجلت بزحف أوروبي مستمر على أراضي السلطنة العثمانية واقتصادها ومؤسساتها، أنتج لدى دول الحلفاء معرفة كبيرة بطبيعة المنطقة العربية.

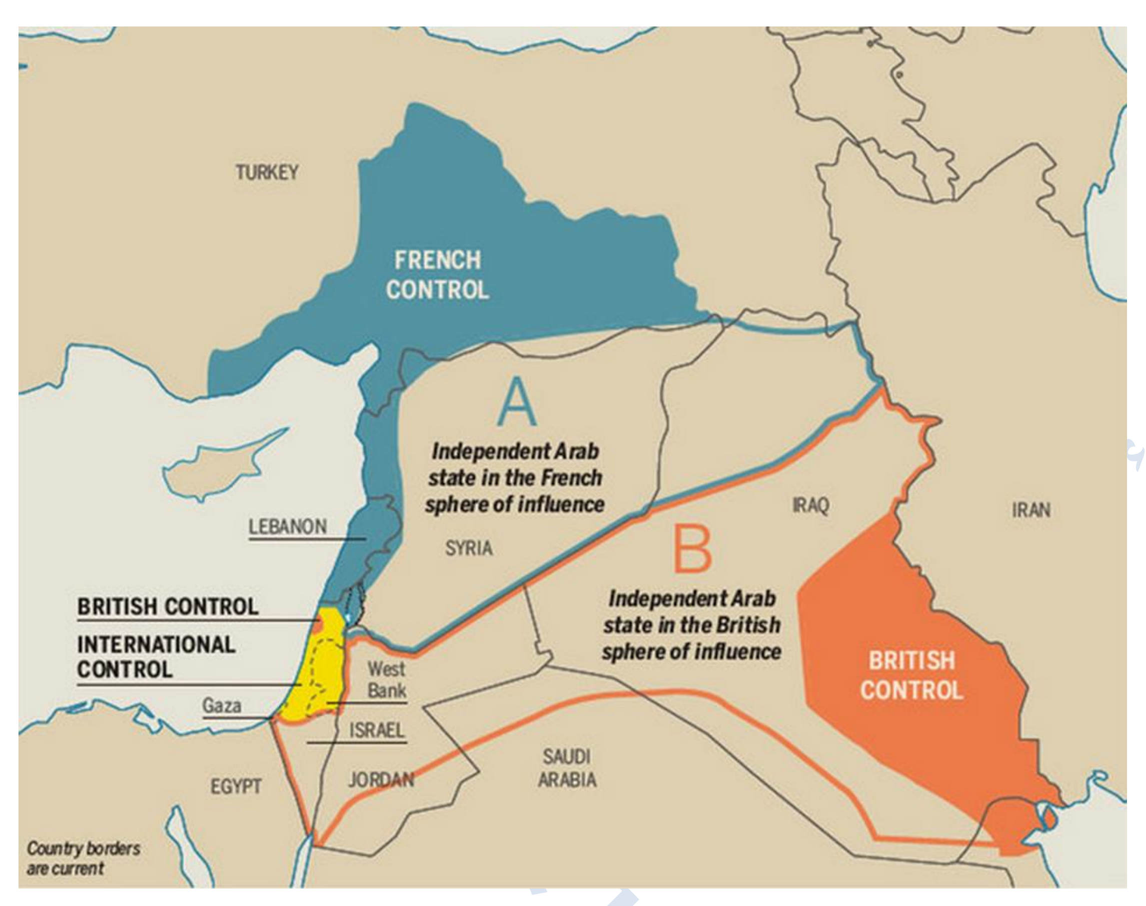
لذا فإن التدقيق في خرائط التقسيم يكشف وبوضوح الرغبة في إبعاد العرب السنة عن معظم الساحل الشرقي للبحر المتوسط، بالإضافة إلى محاولة عزل تركيا عن العرب السنة في العراق وسوريا بواسطة أقليات دينية وعرقية، كذلك فإن التقسيم اعتمد على الثروات الطبيعية والمصادر الاقتصادية للمجتمعات المحلية [١٦].

---

[١٤] سوريا العثمانية وأسرارها: مصدر سابق، الرابط: https://goo.gl/dRzuvY

[١٥] اتفاقية سايكس - بيكو ٩ أيار ١٩١٦: موقع فلسطين بالعربية - قسم الوثائق، الرابط: https://goo.gl/oxfvgk

[١٦] تاريخ سورية المعاصر: كمال ديب، دار النهار للنشر، بيروت، الطبعة الأولى، تشرين الأول ٢٠١١، ص ٣٩.



خريطة (٢): اتفاقية سايكس بيكو - موقع جيرون[١٧]

مرحلة الهاشميين

كان من المستحيل تنفيذ اتفاقية سايكس بيكو دون إزاحة العثمانيين عن ولاية سوريا من خلال هزيمتهم عسكرياً؛ لذا أصبح لزاماً على أطراف الاتفاقية الاتصال مع الزعامات العربية والتحالف معها ضد العثمانيين.

كانت علاقة الشريف حسين أمير مكة متوترة مع العثمانيين؛ لأنه كان يخشى على نفوذ الشرافة من سطوة الأتراك، خاصة بعد مد خط سكة حديد الحجاز الذي يربط الحجاز كله بالشام، وصولاً إلى الأناضول. فبدأ الشريف بالبحث عن مساعدة الدول الكبرى.

أرسل الشريف حسين ابنه فيصلاً إلى دمشق سنة ١٩١٥ م ليتصل بزعماء الحركة القومية العربية، وعرض عليهم اتصالاته مع بريطانيا، فأعطى زعماء جمعيتي "العربية الفتاة"، و"العهد" فيصل بن الحسين خريطة توضح حدود الدولة العربية المرجوة من ثورة الشريف، الذي عقدوا الزعامة له. كذلك وضعوا مخططاً للمطالب التي يريدون الشريف حسين أن يتفاوض على أساسها مع الإنجليز، وهي ما عرفت باسم "بروتوكول دمشق"[١٨]. كان هذا البروتوكول هو مضمون الرسالة الأولى ممَّا عرف فيما بعد بمراسلات الحسين مكماهون في ١٤ تموز/يوليو ١٩١٥ م، ونص على أن تعترف بريطانيا باستقلال

---

[١٧] http://www.geroun.net/archives/60821

[١٨] الثورة العربية.. وعود وخداع: مصطفى عاشور، موقع إسلام أون لاين، الرابط: https://goo.gl/RG4Mec

البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التي تبدأ شمالاً بخط مرسين- أضنة، ممتداً على أورفة وماردين وجزيرة ابن عمر فحدود فارس، وشرقاً: حدود إيران حتى الخليج، وجنوباً: المحيط الهندي (ما عدا عدن)، وغرباً: البحر الأحمر والأبيض حتى مرسين[١٩].

عند اشتعال الحرب العالمية الأولى كان التحالف معقوداً بين الشريف حسين والإنجليز، حيث نودي في ٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٦م بالشريف ملكاً على العرب، في حين كان ابنه الأمير فيصل يقود حملته العسكرية في بلاد الشام ضد العثمانيين.

في ٢٧ أيلول/سبتمبر ١٩١٨ م أعلن قائد الجيش العثماني جمال باشا المرسيني انسحابه من دمشق وسافر مع ما تبقى من قواته فيها باتجاه الشمال، فكان آخر عسكري تركي يخرج من دمشق. وتلا ذلك في ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر انسحاب القوات العثمانية من حلب، لتصبح سوريا دولة مستقلة بشكل كامل عن الدولة العثمانية، وتتهيأ لمرحلة جديدة من الحكم هي مرحلة الحكم العربي عليها.

دخلت القوات العربية مدينة دمشق ترافقها قوة رمزية بريطانية في ١ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩١٨م، وأخذ الأمير فيصل بتنظيم الحكم؛ فشكل حكومة عسكرية برئاسة اللواء رضا الركابي، ومجلس شورى وديوان شورى حربي لتنظيم الجيش.

تم تشكيل مجلس وطني يمثل الشعب في دمشق باسم المؤتمر السوري العام، الذي اجتمع وعقدت أولى جلساته يوم ٧ آذار/مارس ١٩١٩م، وأعلن استقلال البلاد السورية بحدودها الطبيعية استقلالاً تاماً، وقرر عدم الاعتراف بأي اتفاق أو أي معاهدة تعقدها الحكومة ما لم تعرض عليه ويصادق عليها.

قرر أعضاء هذا المؤتمر بالإجماع أن يعهد إلى الأمير فيصل بقيادة المرحلة الجديدة، وأن ينصب ملكاً على سوريا، وأن تجري حفلة التنصيب هذه في ٨ آذار/مارس عام ١٩٢٠م، لتكون بهذا ولادة المملكة السورية.

أعلن المؤتمر كذلك الاتحاد السياسي والاقتصادي مع العراق، وطالب باستقلاله وتم تشكيل حكومة جديدة برئاسة علي رضا الركابي في ٩ أيار/مايو ١٩٢٠م.

خرجت بريطانيا من سوريا سنة ١٩٢٠م، بناءً على مؤتمر سان ريمو الذي عقده مجلس الحلفاء الأعلى في إيطاليا، والذي قرَّر ما يلي:

١- وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي.

٢- وضع العراق تحت الانتداب الإنكليزي.

٣- وضع فلسطين وشرقي الأردن تحت الانتداب الإنكليزي مع الالتزام بتنفيذ وعد بلفور.

[١٩] الهاشميون وحلم العرب: روبرت ماكنمارا، ترجمة منال حامد، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٦م، ص ٦٩- ٧٠.

وهكذا تم وضع الصيغة النهائية لاتفاقية سايكس بيكو، مع إدخال جزيرة قبرص في صلبها باعتبارها جزءاً من المنطقة.

في ١٤ تموز (يوليو) عام ١٩٢٠م وجه الجنرال غورو، قائد جيش الشرق العام والمندوب السامي للجمهورية الفرنسية، وهو في بيروت، إنذاراً إلى الملك فيصل يتضمن:

١- وضع سكة حديد رياق – حلب تحت تصرف القوات الفرنسية.

٢- قبول الانتداب الفرنسي على سوريا بلا قيد أو شرط.

٣- إلغاء النفير العام والتجنيد الإجباري وتخفيض عدد الجيش السوري.

٤- قبول التعامل بالعملة الورقية التي أصدرتها فرنسا.

٥- معاقبة الأشخاص المناوئين للسلطة الفرنسية. ويعني بهم الثوار[٢٠].

إلا أن المؤتمر السوري العام اجتمع وأعلن رفضه للإنذار، ودعا إلى مظاهرات ضد هذا الاتفاق بالضد من موقف حكومة فيصل التي قبلت الإنذار وبدأت بالفعل في التجاوب معه وتطبيقه على الأرض، إلا أن الجنرال غورو كان قد اتخذ قراراً بالاستيلاء على سوريا عسكرياً، فأمر قواته المرابطة في لبنان بالزحف على دمشق متحججاً بأن تفاصيل قبول الإنذار لم تصل في الساعة المحددة[٢١].

أعلنت الحرب على فرنسا يوم ٢١ تموز (يوليو) ١٩٢٠م، وخرج وزير الحربية يوسف العظمة على رأس قواته القليلة إلى موقع ميسلون، حيث جرت معركة انتحارية غير متكافئة مع قوات فرنسية كبيرة.

استمرت المعركة نحو ساعتين، استشهد فيها ما يزيد عن ٨٠٠ مقاتل على رأسهم وزير الحربية السورية يوسف العظمة، ودخل الفرنسيون دمشق في ٢٥ تموز (يوليو) ١٩٢٠م، فاستقالت وزارة هاشم الأتاسي واضعة خاتمة لمرحلة الحكم الوطني في بلاد الشام.

لم تستمر المملكة السورية سوى شهور معدودات، إذ انتهت بمغادرة الملك فيصل دمشق في ٢٨ تموز/يوليو ١٩٢٠م، وقيام الجيش الفرنسي باحتلال الثكنات، وفرض السيطرة العسكرية على المدينة.

في آذار/مارس من سنة ١٩٢١م قررت بريطانيا تقسيم فلسطين إلى جزأين؛ غرب النهر ليكون دولة لليهود الصهاينة، ودولة شرق النهر لتكون "منطقة عازلة" لحماية الكيان الصهيوني القادم، هذه المنطقة العازلة سميت فيما بعد بإمارة شرق الأردن؛ وكان رئيس الوزراء البريطاني تشرشل قد وعد أمير شرق الأردن عبد الله الأول بأن هذا التقسيم مؤقت وبأنه سيصبح ملك بلاد الشام بحيث تكون الإمارة جزءاً منها ويكون أخوه فيصل ملكاً على العراق.

عندما تبين للهاشميين أنهم لن يبسطوا سلطانهم على الشام بعد رحيل فيصل عن سوريا قرر عبد الله الأول أن يجعل الأردن مملكة مستقلة، وألغى النشيد الوطني السوري في الأردن، واستبدل به السلام الملكي.

[٢٠] مدينة دمشق ومواجهة الاستعمار الفرنسي ١٩٢٠-١٩٤٦: د. أكرم محمد العدوان، الجامعة الإسلامية - غزة، ٢٠٠٩، الرابط: https://goo.gl/EDT9ev

[٢١] المصدر السابق.

النشيد الوطني السوري حينها كان من شعر مختار التنير وألحان الأخوين فليفل ومطلعه يقول:

سوريا يا ذات المجدِ ... والعزة في ماضي العهدِ

إن كنت لنا أسمى مهدِ ... فثراكِ لنا أسمى لحدِ[22]

مرحلة الاحتلال الفرنسي

كان لدى الفرنسيين نية مبيتة في تقسيم حصتهم من بلاد المشرق على أساس طائفي، يساعدهم في هذا أن عدداً من المجتمعات المحلية، وخاصة في جبل لبنان، فضلت الكيانات المستقلة؛ لذا قام الانتداب بتقسيم ما أسماه الشعوب السورية إلى ست دول مستقلة؛ وهي دولة دمشق ودولة حلب ودولة العلويين ودولة لبنان الكبير ودولة جبل الدروز ولواء الإسكندرون المستقل. ولكل منها علم وعاصمة وحكومة ومجلس نيابي وعيد وطني وطوابع مالية وبريدية خاصة[23].

أمَّا بالنسبة لحدود هذه الدويلات فهي كالآتي:

دولة لبنان الكبير

أنشئت في أيلول/سبتمبر ١٩٢٠م، عاصمتها مدينة بيروت. وضمت فضلا عن جبل لبنان مدن بيروت وطرابلس وصيدا وصور ومناطق وادي البقاع وجبل عامل وسهل عكار.

دولة دمشق

أنشئت في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٠م، عاصمتها مدينة دمشق. وضمت المناطق الممتدة من جنوب مدينة دمشق وحتى شمال حماة.

دولة حلب

أنشئت في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٠م، عاصمتها مدينة حلب. وضمت مناطق ممتدة من محافظة حلب وحتى حوض الفرات شرقاً.

دولة جبل العلويين

أنشئت في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٠م، عاصمتها مدينة اللاذقية. وضمت محافظتي اللاذقية وطرطوس، وأعطيت حكماً ذاتياً قبل أن تضمها فرنسا لسلطتها الانتدابية عام ١٩٢٢م، وأعلن عن تسميتها "الدولة العلوية" عام ١٩٢٥م، وتم ضمها نهائياً إلى سوريا عام ١٩٣٦م.

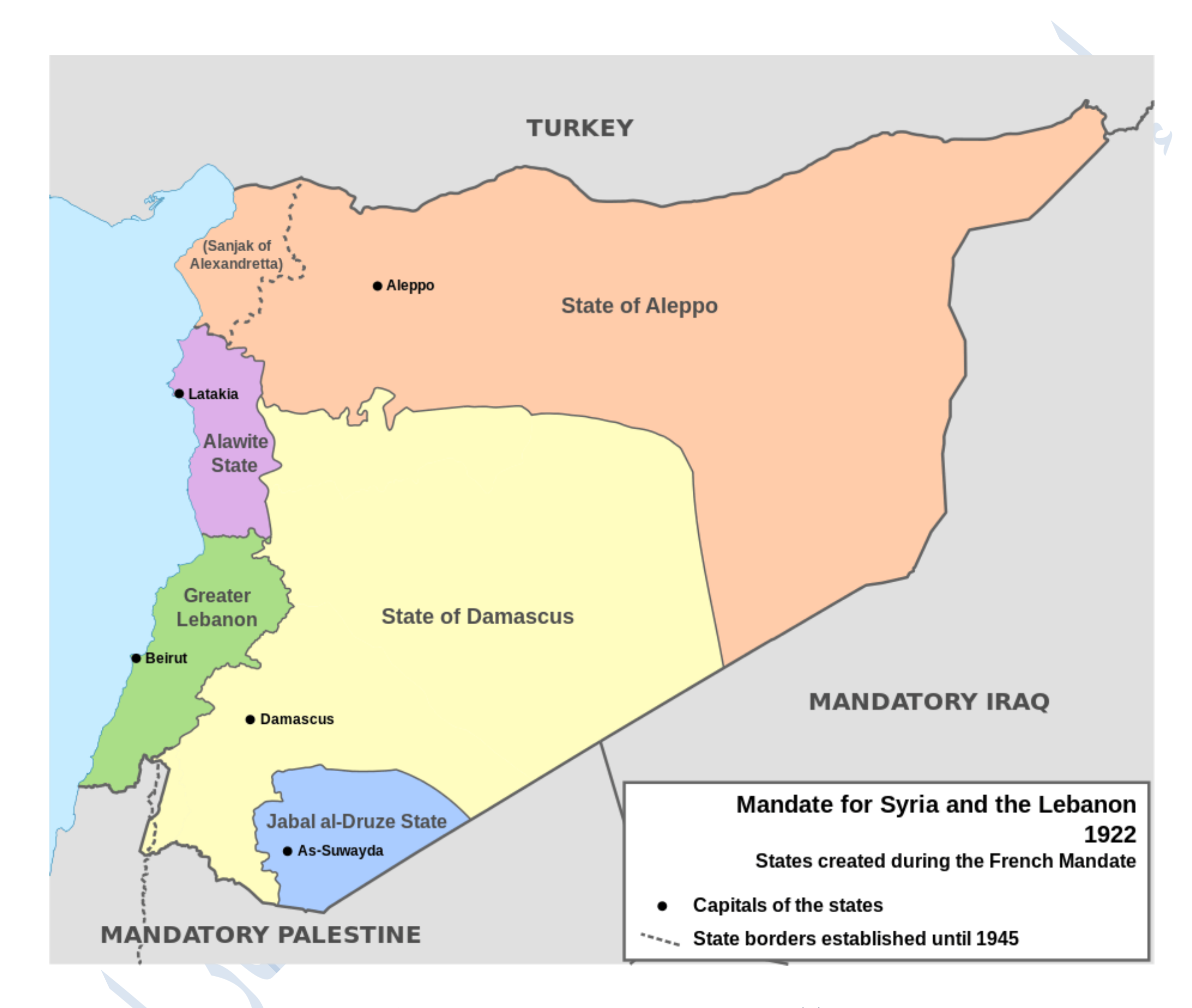
[22] نشيد "سورية يا ذات المجد": موقع زمانكم، الرابط: https://goo.gl/xoeQEh

[23] تاريخ سورية المعاصر: مصدر سابق، ص ٣٧-٣٨.

خلال تقسيم سوريا ظهر لأول مرة مصطلح "العلويين" بدل النصيريين، وعلم دولة العلويين تظهر شمس في وسطه، وهي دلالة على الإله "علي" المحتجب في عين الشمس.

دولة جبل الدروز

أنشئت في آذار/مارس ١٩٢١م، عاصمتها مدينة السويداء. وتضم جبل الدروز. وفي عام ١٩٢٢م سميت "دولة السويداء"، ليعاد تسميتها بدولة جبل الدروز عام ١٩٢٧م، واستمر حكمها الذاتي حتى عام ١٩٣٦م، حين انضمت رسمياً إلى سوريا.



خريطة (٣): التقسيم في سوريا إبان الاحتلال الفرنسي- مركز إدراك

لواء الإسكندرون

جاء في الرسالة الأولى بين الشريف حسين والسير هنري مكماهون بتاريخ ١٤\٧\١٩١٥ الاقتراح التالي:

"أن تعترف إنجلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين-أضنة"[٢٤]، أي تبدأ حدود الدولة العربية اعتباراً من خط مرسين-أضنة، وهو الموازي لخط ٣٧ شمالاً الذي تقع عليه المدن والقرى بيره جوق، أورفة، ماردين، فديان، جزيرة ابن عمر، عمادية، حتى حدود إيران، ما يعني أن لواء الإسكندرون كان ضمن الأراضي العربية.

في اتفاقية سايكس بيكو كان اللواء داخل المنطقة الزرقاء التابعة للانتداب الفرنسي، بمعنى أن المعاهدة اعتبرته سورياً. وخلال بداية عهد الانتداب الفرنسي كان اللواء يتبع لحلب، غير أن الفرنسيين في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢١ سلخوا أجزاء من دولة حلب ومنحوها للأتراك؛ ما جعل الحدود التركية تقترب إلى مسافة خمسين كيلومتراً من مدينة حلب، ثم أعطت فرنسا امتيازات خاصة لتركيا في لواء الإسكندرون[٢٥].



خريطة (٤): لواء الإسكندرون - موقع أبناء لواء اسكندرون[٢٦]

رفض هذا التقسيم شعبياً، فعمد الانتداب سنة ١٩٢٢م إلى خطة بديلة، قضت بإنشاء اتحاد فيدرالي بين ثلاث من هذه الدويلات (دمشق وحلب والعلويين) تحت اسم "الاتحاد السوري".

مجلس الاتحاد السوري كان يتألف من خمسة ممثلين عن دولة دمشق، ومثلهم عن دولة حلب، ومثلهم عن دولة العلويين، واتخذت دمشق سنة ١٩٢٣م مركزاً دائماً لحكومة الاتحاد. لكن المزاج العام كان ضد هذا الاتحاد، فقامت سلطة الانتداب في ١٩٢٤\١٢\٥ بإلغاء الاتحاد السوري، وإنشاء وحدة بين دولتي دمشق وحلب فقط، مع المحافظة على استقلال دولة العلويين وعاصمتها اللاذقية، وفقاً لرغبة الناس هناك، كذلك جعل لواء إسكندرون إدارة مستقلة، وأنهيت ارتباطاته بدولة حلب، لتتحد دولتا دمشق وحلب في ١٩٢٥\١\١م، وتتألف دولة واحدة اسمها الدولة السورية مع الاحتفاظ بحقوق وواجبات حكومة الانتداب[٢٧].

---

[٢٤] الرسائل المتبادلة بين الشريف حسين والسير هنري مكماهون: موقع فلسطين بالعربية - قسم الوثائق، الرابط: https://goo.gl/craCFB

[٢٥] تاريخ سورية المعاصر: مصدر سابق، ص ٤٢.

[٢٦] http://www.lewaa-iskenderun.com/site/history/iskenderun-2/

[٢٧] محاضرات عن سوريا من الاحتلال حتى الجلاء: نجيب أرمنازي، جامعة الدول العربية-معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٤م، ص ٢٠-٢١.

العلاقة الفرنسية العلوية

لا بأس بل لا بد من الإضاءة على العلاقة الخاصة التي ربطت فرنسا بالعلويين ومناطقهم دون غيرهم. وهذه علاقة سابقة على الوجود العسكري الفرنسي في سوريا، وتجلت بمبعوثين فرنسيين لجبال العلويين، حتى يتم تشكيل تصور فرنسي كامل عنهم وعن عقيدتهم، ومن ثم استخدامهم كرأس حربة في المخططات الفرنسية والغربية عموماً لتفكيك الدولة العثمانية والقضاء عليها[٢٨].

من بين المستكشفين الفرنسيين المهمين كان المستشرق رينيه ديسو، الذي ألف كتاب "تاريخ النصيرية وديانتهم" والصادر عام ١٩٠٠م. وكان هناك كذلك الضابط ليون كاهون الذي وصل عام ١٨٧٨م من لبنان إلى اللاذقية، ومنها لمنطقة القرداحة. وهذه الرحلة كانت بالتعاون مع القنصلية الفرنسية في اللاذقية[٢٩].

دون الضابط كاهون مشاهداته في كتاب أسماه رحلة إلى جبال العلويين، وهو يعطي فكرة واضحة جداً عن العلويين وموقفهم من الفرنسيين، حيث ينقل عن بعض وجهائهم خلال جلسة سمر معهم قولهم له: "متى سيأتي الفرنسيون؟ ليأتِ الفرنسيون كرمى لله.. إذا أرادت فرنسا حمايتنا فسنتكفل نحن بطرد الحكومة التركية من اللاذقية حتى طرابلس.. لماذا لا تريدنا فرنسا؟!"[٣٠] .

كما يصف كاهون في موضع آخر لهفة الشباب الذين اجتمع بهم لوصول القوات الفرنسية إلى سوريا، واستعدادهم للعمل معها فيقول: "كان هناك تساؤل يلوح على وجوه هؤلاء الجبليين الشجعان ويشغل بالهم: متى سيأتي الفرنسيون؟ كانوا يعتقدون بقوة أنهم سينتفعون بقدوم الفرنسيين، وهم مقتنعون بهذا الرأي"[٣١] .

ثم ينقل الضابط كيف أنشد الرجال والشباب والنساء في سهرة سمر صاخبة أهزوجة كانت كلماتها "وصل السيد الفرنسي بيننا.. وجوده من سعد طالعنا.. ينبئنا أن فرنسا ستعطينا السلاح.. سلاحاً بنادق ومدافع.. لنطرد المدراء والولاة الأتراك.. كي نكون عسكر فرنسا"[٣٢].

الوجود العسكري الفرنسي في جبال العلويين بدأ منذ ١٩١٨م أي قبل دخول غورو دمشق بعامين، وهنا تقع مغالطة كبيرة فيما يسمى بثورة صالح العلي ضد الاحتلال الفرنسي.

القصة تعود جذورها إلى الخلاف بين النصيرية والإسماعيلية على بلدة القدموس، التي أراد صالح العلي استعادتها من الإسماعيلية أواخر سنة ١٩١٨م، فأغار عليهم في شهر نيسان/أبريل ١٩١٩م في جبل الكلبية وناحية القدموس وغيرهما من قرى الإسماعيلية. فنهب العلويون القدموس وخربوها، ما أدى إلى اصطفاف الفرنسيين مع الإسماعيليين، وقامت كتيبة من الجيش الفرنسي بالهجوم على بعض القرى العلوية حتى وصلت إلى المريقب مقر صالح العلي، وأحرقت بيوته ثم تراجعت الحملة الفرنسية إلى القدموس ومنها إلى بانياس وطرطوس[٣٣].

---

[٢٨] العلاقة بين فرنسا والعلويين:وثائق وأسرار في "طلب" الاحتلال: رواء جمال علي، موقع أورينت نت، ٢٠١٤\١٠\٢٧، الرابط: https://goo.gl/DFvU2W

[٢٩] رحلة إلى جبال العلويين عام ١٨٧٨م: ليون كاهون، - ترجمة مها أحمد، التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ٢٠٠٤، ص ٩.

[٣٠] المصدر السابق: ص ٣٧.

[٣١] المصدر السابق: ص ٤٢.

[٣٢] المصدر السابق: ص ٧٣.

[٣٣] خطط الشام: مصدر سابق، ٣\١٧٠-١٧١.

من هنا لا يمكن اعتبار قتال صالح العلي اللاحق للفرنسيين موقفاً وطنياً، وإنما كانا موقفاً ثأرياً من اصطفاف قوات الاحتلال ضده. ويتعزز هذا الرأي بالرسالة التي أرسلها الجنرال غورو إلى حكومته في باريس وقال فيها: "أُفيدكم بهذا الصدد أن النصيريين الذين يستيقظ شعورهم الإقليمي للحكم الذاتي منذ لم يعد للأتراك دور هنا لتذويبهم مع المسلمين، قد ساعدوني كثيراً على قمع الفتنة التي أثارها الشريف فيصل في منطقة تلكلخ، فقد تلقيتُ برقيةً تفيدني بأن ٧٣ زعيماً نصيرياً يتحدثون باسم جميع القبائل، ويطالبون بإنشاء اتحاد نصيري مستقلٍ تحت حمايتنا. ما يقتضي تأمين الاستقلال الذاتي والعلاقات المباشرة للدولة النصيرية مع فرنسا...إن انقسامات سوريا التي ينبغي أن تساعدنا على تنظيم البلاد بشكل عملي وملائم لسلطتنا، هي الآن ذات فائدة كبيرة لنا من أجل احتواء الحركة المنظّمة ضدنا"[٣٤].

نتيجة لتواصل الفرنسيين المباشر مع العلويين بعد أن أنشؤوا لهم دويلتهم، سيطر الهدوء على هذه الدويلة ولم تشهد أي أعمال عدائية ضد الفرنسيين حتى خلال فترة الثورة السورية الكبرى، التي اندلعت ١٩٢٥م، واستمر الأمر هادئاً حتى انضمام الدويلة العلوية للجمهورية السورية عام ١٩٣٦م[٣٥].

الشاهد الملك على كل ما سبق هو الوثيقة رقم ٣٥٤٧ بتاريخ ١٩٣٦/٦/١٥م، وهي رسالة واحدة من ثلاث رسائل أرسلها بعض أعضاء المجلس التمثيلي العلوي للحكومة الفرنسية ما بين ٨ و١٥ حزيران/يونيو ١٩٣٦م يرفضون فيها الاتحاد مع الجمهورية السورية وهذا نصها:

"دولة ليون بلوم، رئيس الحكومة الفرنسية بمناسبة المفاوضات الجارية بين فرنسا وسوريا، نتشرف نحن زعماء ووجهاء الطائفة العلوية في سورية أن نلفت نظركم ونظر حزبكم إلى النقاط التالية : إن الشعب العلوي الذي حافظ على استقلاله سنة فسنة، بكثير من الغيرة والتضحيات الكبيرة في النفوس، هو شعب يختلف بمعتقداته الدينية وعاداته وتاريخه عن الشعب المسلم السني. ولم يحدث في يوم من الأيام أن خضع لسلطة من الداخل.

١- إن الشعب العلوي يرفض أن يلحق بسوريا المسلمة، لأن الدين الإسلامي يعتبر دين الدولة الرسمي، والشعب العلوي، بالنسبة إلى الدين الإسلامي، يُعتبر كافرا. لذا نلفت نظركم إلى ما ينتظر العلويين من مصير مخيف وفظيع في حالة إرغامهم على الالتحاق بسوريا عندما تتخلص من مراقبة الانتداب ويصبح بإمكانها أن تطبق القوانين والأنظمة المستمدة من دينه..

٢ - إن منح سوريا استقلالها وإلغاء الانتداب يؤلفان مثلاً طيّباً للمبادئ الاشتراكية في سوريا، إلاّ أن الاستقلال المطلق يعني سيطرة بعض العائلات المسلمة على الشعب العلوي في كيليكيا واسكندرون وجبال العلويين. أما وجود برلمان وحكومة دستورية فلا يظهر الحرية الفردية. إن هذا الحكم البرلماني عبارة عن مظاهر كاذبة ليس لها أية قيمة، بل يخفي في الحقيقة نظاماً يسوده التعصب الديني على الأقليات. فهل يريد القادة الفرنسيين أن يسلطوا المسلمين على الشعب العلوي ليلقوه في أحضان البؤس؟

٣ - إن روح الحقد والتعصب التي غرزت جذورها في صدر المسلمين العرب نحو كل ما هو غير مسلم هي روح يغذيها الدين الإسلامي على الدوام. فليس هناك أمل في أن تتبدل الوضعية. لذلك فان الأقليات في سوريا تصبح، في حالة إلغاء الانتداب، معرضة لخطر الموت والفناء، بغض النظر عن كون هذا الإلغاء يقضي على حرية الفكر والمعتقد، وها إننا نلمس اليوم كيف أن مواطني دمشق المسلمين يرغمون اليهود القاطنين بين ظهرانيهم على توقيع وثيقة يتعهدون بها بعدم إرسال المواد

[٣٤] قراءة جديدة في تاريخ سوريا الحديث: جعفر الكنج الدندشي، ص ١٦، الرابط: https://goo.gl/p6fDLr
[٣٥] المصدر السابق: ص ١٧.

الغذائية إلى إخوانهم اليهود المنكوبين في فلسطين. وحالة اليهود في فلسطين هي أقوى الأدلة الواضحة الملموسة على عنف القضية الدينية التي عند العرب المسلمين لكل من لا ينتمي إلى الإسلام. فإن أولئك اليهود الطيبين الذين جاءوا إلى العرب المسلمين بالحضارة والسلام، ونشروا فوق أرض فلسطين الذهب والرفاه، ولم يوقعوا الأذى بأحد، ولم يأخذوا شيئاً بالقوة، ومع ذلك أعلن المسلمون ضدهم الحرب المقدسة، ولم يترددوا في أن يذبحوا أطفالهم ونساءهم بالرغم من وجود إنكلترا في فلسطين وفرنسا في سوريا. لذلك فإن مصيراً أسود ينتظر اليهود والأقليات الأخرى في حال إلغاء الانتداب وتوحيد سوريا المسلمة مع فلسطين المسلمة. هذا التوحيد هو الهدف الأعلى للعربي المسلم.

٤ - إننا نقدر نبل الشعور الذي يحملكم على الدفاع عن الشعب السوري وعلى الرغبة في تحقيق الاستقلال، لكن سوريا لا تزال في الوقت الحاضر بعيدة عن الهدف الشريف الذي تسعون إليه لأنها لا تزال خاضعة لروح الاقطاعية الدينية. ولا نظن أن الحكومة الفرنسية والحزب الاشتراكي الفرنسي يقبلون أن يُمنح السوريون استقلالاً يكون معناه، عند تطبيقه، استعباد الشعب العلوي وتعريض الأقليات لخطر الموت والفناء. أما طلب السوريين بضم الشعب العلوي إلى سوريا فمن المستحيل أن تقبلوا به أو توافقوا عليه، لان مبادئكم النبيلة، إذ كانت تؤيد فكرة الحرية، فلا يمكنها أن تقبل أن يسعى شعب إلى خنق حرية شعب آخر لإرغامه على الانضمام إليه.

٥ - قد ترون أن من الممكن تأمين حقوق العلويين والأقليات بنصوص المعاهدة، أما نحن فنؤكد لكم أن ليس للمعاهدات أية قيمة إزاء العقلية الإسلامية في سوريا. وهكذا استطعنا أن نلمس قبلاً في المعاهدة التي عقدتها إنكلترا مع العراق التي تمنع من ذبح الأشوريين واليزيديين. فالشعب العلوي، الذي نمثله، نحن المجتمعون والموقعون على هذه المذكرة، يستصرخ الحكومة الفرنسية والحزب الاشتراكي الفرنسي ويسألهما ضماناً لحريته واستقلاله ضمن نطاق محيطه الصغير، ويضع بين أيدي الزعماء الفرنسيين الاشتراكيين، وهو واثق من أنه واجد لديهم سنداً قوياً أميناً لشعب مخلص صديق، قدّم لفرنسا خدمات عظيمة، مهدد بالموت والفناء.

الموقعون: عزيز آغا الهوّاش، محمد بك جنيد، سليمان المرشد، محمود آغا جديد، سليمان الأسد، محمد سليمان الأحمد.[٣٦]"

اللافت في الرسالة أنهم لا يعتبرون أنفسهم عرباً فضلاً عن عدم اعتبار أنفسهم مسلمين، وفي هذا تكذيب لكل الدعاوى التي أتى بعضهم بها بعد الاستقلال حول العروبة والدفاع عن القومية العربية.

الرغبة الانفصالية عند العلويين لا تنفيها مطلقاً الرسالتان المطالبتان بالانضمام إلى الجمهورية السورية، واللتان وجههما بعض زعماء عشائرهم لوزارة الخارجية الفرنسية في شهر تموز/يوليو سنة ١٩٣٦م، أي بعد شهر واحد من الرسائل التي طالبت بالانفصال. حيث أتت الرغبة بالوحدة بعد تأكد العلويين من عدم إقدام الفرنسيين على تحقيق استقلالهم فساروا مع ركب سوريا الموحدة.

---

[٣٦] المصدر السابق: ص ٢٣، ٢٤، ٢٥.

أما تراجع الفرنسيين عن تحقيق انفصال العلويين وضمهم إلى سوريا، فيرجع إلى أن سلطة الانتداب كانت ترى أن عوام العلويين لم يصلوا إلى مستوى يؤهلهم لبناء دولة مستقلة، كذلك كانت باريس ترى أن دولة العلويين المفترضة فقيرة اقتصادياً ولا تستطيع تحمل مصاريف إنشاء دولة[٣٧].

العلاقة الفرنسية الدرزية

الملاحظ أنه في خضم أحداث الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥م كانت دولة الدروز قائمة، فقد استمرت في الفترة بين ١٩٢١-١٩٣٦م حيث أُطلق عليها أولاً اسم "إمارة جبل الدروز".

وعدت فرنسا سليم الأطرش برئاسة إمارة جبل الدروز، وقد تمّ الاجتماع الأوّل مع كبار الشخصيات الدرزية وعلى رأسهم آل الأطرش، بتاريخ ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٢٠م في بلدة قنوات، وتم اجتماع آخر في دمشق خلال شهر كانون الثاني/يناير عام ١٩٢١م، توج بتعيين سليم الأطرش أميراً على دولة جبل الدروز بموافقة الجنرال غورو.

ظل الدروز يُحكمون مباشرة من الإدارة العسكرية الفرنسية، وازدادت الخلافات بين رؤساء عشائرهم بين مؤيد للاحتلال الفرنسي وبين مؤيد للانضمام إلى إمارة شرق الأردن الهاشمية، ما أدى إلى قيام تمرد ضد الفرنسيين في شهر تموز/يوليو من عام ١٩٢٢ تحت قيادة سلطان الأطرش.

في ٢٥ تموز/يوليو ١٩٢٥ استدعى المستشار السامي الفرنسي زعماء الدروز إلى دمشق؛ وهم سلطان الأطرش، وعمه الأمير حمدان الأطرش، وعمه نسيب الأطرش وابن عمّه عبد الغفّار الأطرش، وكان في نية الفرنسيين اعتقالهم غير أن سلطان الأطرش تمكن من الهروب.

عاد الأطرش إلى الجبل وقاد تمرداً مسلحاً ضد الفرنسيين، بدعم على مستوى التخطيط والعتاد من إمارة شرق الأردن والبريطانيين، وغاية لندن من هذا إعطاء درس لفرنسا؛ بسبب الشروط المجحفة التي فرضتها على ألمانيا في نهاية الحرب العالمية الأولى بمعاهدة فرساي عام ١٩١٩م.

فشلت "ثورة جبل الدروز" كما يسميها الفرنسيون، برغم نجاحها في مراحلها الأولى؛ لأن الدعم البريطاني كان متوفراً إلى الحد الذي يزعج فرنسا فقط. وفي شهر آب/أغسطس ١٩٢٥م لجأ سلطان الأطرش إلى إمارة شرق الأردن، وهناك منحه أميرها عبد الله بن الحسين لقب باشا.

بعد هذا عم الهدوء دولة الدروز حتى انتهائها سنة ١٩٣٦م، وكانت مرت بالتسلسل التالي: في ٤ آذار/مارس ١٩٢٢م أعلنت دولة السويداء، نسبة لاسم عاصمتها السويداء، ثم أعيدت تسميتها باسم دولة جبل الدروز في ١٩٢٧م. وبعد توقيع المعاهدة الفرنسية السورية في عام ١٩٣٦م لم يعد جبل الدروز كياناً مستقلاً، فتم ضمه إلى سوريا. وفي ٣٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٤م أصدر المجلس النيابي السوري قانوناً يقضي بإلغاء الاستقلال المالي والإداري الذي تتمتع به محافظة جبل الدروز، وربطها نهائياً بالحكومة السورية[٣٨].

---

[٣٧] المصدر السابق: ص ٣٢، ٣٣.

[٣٨] قراءة جديدة في تاريخ سوريا الحديث: مصدر سابق، ص ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤.

الثورة السورية الكبرى

بعد أن وحد الانتداب دولتي دمشق وحلب أرسل في ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٥م، حملة عسكرية على غوطة دمشق لتعقب الثوار بقيادة حسن الخراط، وبعد هذا بقليل في عام ١٩٢٥م اندلعت شرارة معارك الثورة السورية الكبرى في منطقة حوران، بقيادة الشيخ إسماعيل باشا بن إبراهيم الحريري شيخ مشايخ حوران، والشيخ زعل بيك بن شحادة الرفاعي من زعماء الثورة في حوران، وامتدت الثورة إلى دمشق ولبنان واللاذقية.

وحوران كان لها شرف إطلاق أول عملية مسلحة ضد الاحتلال الفرنسي ورجاله، عندما قتل رجالها في ١٩٢٠\٨\٢١م علاء الدين الدروبي، وهو رئيس الحكومة التي عينها الانتداب، وتم قتل الدروبي في قرية خربة غزالة[٣٩] .

هنا أوعزت فرنسا إلى البرلمان الحلبي بالانعقاد وإعلان الانفصال عن دمشق، لكن الوطنيين في حلب بقيادة إبراهيم هنانو أحبطوا المشروع، بعد أن أشعلوا الاحتجاجات والتظاهرات، وقاموا بقطع الطرق المؤدية إلى البرلمان يوم التصويت؛ لمنع أعضائه من الوصول والتصويت.

من نتائج الثورة السورية الكبرى إجراء انتخابات لتشكيل جمعية تأسيسية في ١٩٢٨م من أجل وضع دستور للبلاد، تضمن فيما بعد ١١٥ مادة، جاء في بعضها أن سوريا وحدة طبيعية لا تتجزأ، وسوريا دولة مستقلة لا يجوز السماح بضياع أي جزء من أراضيها، ودين رئيسها الإسلام، وعاصمتها مدينة دمشق.

معاهدة ١٩٣٦م وسلخ لواء إسكندرون

بعد مضي سنوات تقدم المندوب السامي دومارتيل بمشروع معاهدة رفضته أكثرية أعضاء المجلس النيابي، فأقال حكومة حقي العظم، وكلف تاج الدين الحسيني بتشكيل وزارة جديدة تفجرت ضدها الحركة الوطنية، وانتهت إلى إضراب عام شمل كل المدن السورية عام ١٩٣٦م استمر ستين يوماً.

اضطر دومارتيل إلى عزل حكومة تاج الدين الحسيني، ودخل مع الوطنيين في مفاوضات لعقد معاهدة على أساس الاعتراف بوحدة سوريا واستقلالها، وتشكل وفد من الكتلة الوطنية برئاسة هاشم الأتاسي للسفر إلى باريس لإجراء مفاوضات مع الحكومة الفرنسية.

نجحت المفاوضات لعقد مشروع معاهدة بين سوريا وفرنسا في ٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٦م، وكان أول بنودها استقلال سوريا استقلالاً تاماً، وإقامة علاقات سلم وصداقة بين الدولتين. وقد أُلحق بالمعاهدة كتاب يقضي بضم حكومتي اللاذقية وجبل العرب إلى سوريا كذلك ضمنت المادة الثالثة لأتراك لواء إسكندرون حق استعمال لغتهم في التعليم وإدارات الدولة، وإنماء ثقافتهم القومية[٤٠].

---

[٣٩] محاضرات عن سوريا من الاحتلال حتى الجلاء: مصدر سابق، ص ١٥.

[٤٠] مدينة دمشق ومواجهة الاستعمار الفرنسي ١٩٢٠ - ١٩٤٦: مصدر سابق، ص ١٣.

اتفاقية ١٩٣٦ جاءت لتثبيت السيطرة السياسية والعسكرية الفرنسية على سوريا في مرحلة حرجة بالنسبة لكل من فرنسا وبريطانيا؛ نظرا لأن الحرب العالمية الثانية بدأت تلوح في الأفق؛ لذلك عكفت بريطانيا وفرنسا على تهدئة الأمور في مستعمراتها الخارجية استعداداً لتلك الحرب، ومن ثم كان من مصلحة فرنسا كذلك تهدئة خواطر تركيا.

بناء عليه أصبحت المعاهدة ريشة في مهب الريح فبدلاً من حصول سوريا على مرسيليا سلخ منها لواء الاسكندرونة، حيث نشرت نصوص المعاهدة الفرنسية التركية في جنيف عام ١٩٣٨ والتي نصت على سلخ لواء الاسكندرونة فازدادت الاضطرابات، واستبدل المندوب السامي الفرنسي "دومارتيل" بالجنرال "بيو" الذي أعلن عدول فرنسا عن سياسة التعاقد والعودة في حكم البلاد إلى سابق عهدها حسب صك الانتداب أي إن فرنسا تنصلت تماماً من معاهدة ١٩٣٦م[٤١].

عمل الفرنسيون على إفشال معاهدة ١٩٣٦م؛ حيث حرضت المخابرات الفرنسية الزعماء المحليين في مناطق الدروز والعلويين على رفض السلطة المركزية، والعمل على الانفصال الذي وعدتهم به. ولقيت هذه الخطة الفرنسية نجاحاً كبيراً في لواء الإسكندرون، فصوت البرلمان الفرنسي سنة ١٩٣٩م على التنازل عن اللواء لتركيا، وفي هذه الأثناء واصل الفرنسيون العمل في سوريا ضمن خطة إدارة ذاتية لجبل الدروز وجبال العلويين[٤٢].

نتيجة سلخ اللواء لجأ نحو ستة آلاف علوي إلى دمشق واللاذقية، ومن بين أولئك اللاجئين كان شاعر البعث سليمان العيسى ومؤسس حزب البعث زكي الأرسوزي. والأرسوزي كما يروي عنه الدكتور سامي الجندي كان يرى أن الجاهلية هي مرحلة العرب الذهبية. واللافت في الأمر أن الأرسوزي بدأ يدرس العربية سنة ١٩٤٠م حيث كان يفضل الحديث قبل ذلك بالفرنسية، فمتى وكيف تعلق الأرسوزي بالعرب والعروبة؟![٤٣].

السياسة العسكرية الفرنسية في سوريا

تكونت القوات المسلحة في سوريا خلال الانتداب من جيش الشرق، والقوات الخاصة للشرق، والقوات الإضافية، وقوات الدرك، وجهاز الشرطة.

أهم هذه المكونات على الإطلاق هي القوات الخاصة للشرق التي تكونت في غالبيتها من أبناء الأقليات الدينية والعرقية، ووصل عددها في عام ١٩٣٥م إلى ١٤٠٠٠ عنصر. أما قوات جيش الشرق فقد غادر معظمها سوريا بحلول ١٩٢٤م، وكانت تتألف من الفرنسيين والمغاربة والأفارقة.

عندما شعر الفرنسيون باستتباب الأمر لهم في سوريا خفضوا قوات جيش الشرق، وأنشأوا القوات الخاصة التي دخلها العلويون والدروز والموارنة بكثافة، ثم شكلوا القوات الإضافية وكان عصبها من الإسماعيلية والأكراد والشراكس.

حققت القوات الخاصة والإضافية تفوقاً على القوات الفرنسية فيما يتعلق بمسألة قمع المظاهرات وإخماد الثورات في المناطق السورية، وتمتعت تلك القوات بسمعة سيئة بين السوريين؛ نتيجة لجهل أفرادها والوحشية التي كانوا يعاملون بها أبناء المدن والبلدات.

---

[٤١] المصدر السابق: ص ١٤.

[٤٢] تاريخ سورية المعاصر: مصدر سابق، ص ٧٤-٧٥.

[٤٣] قراءة جديدة في تاريخ سوريا الحديث: مصدر سابق، ص ٣٧-٣٨.

أي إن الفرنسيين في أول عقد احتلالي ١٩٢٠-١٩٢٩م شكلوا وحدات طائفية لضرب الثوار السوريين من العرب السنة، الذين كانوا يرون الانخراط في هذه الوحدات خيانة، لكن هذا لا ينفي بالطبع انخراط أعداد محدودة من العرب السنة في هذه التشكيلات.

في فترة الثلاثينيات تعب الفرنسيون من تكاليف الدويلات الطائفية، وأصبح واضحاً عدم قدرتهم على تحقيق استقلالها؛ لذلك قاموا بضم القوات الإضافية إلى القوات الخاصة، وسرحوا أعداداً كبيرة من أصحاب السمعة السيئة، وازداد عدد الملتحقين بهذه القوات من العرب السنة، لتصبح التوليفة الجديدة نواة للجيشين السوري واللبناني بعد الاستقلال.

الفرنسيون عندما سعوا إلى تجنيد العرب السنة في الجيش، وخاصة من أبناء العائلات الأرستقراطية، كانوا يهدفون إلى الحفاظ على مصالحهم عبر شرعية واعتبارية هؤلاء في المجتمع؛ لذا ارتفع كثيراً عدد خريجي الأكاديمية العسكرية في حمص من العرب السنة، لكن كان يتم التخلص منهم بصورة دورية بسبب تمردهم على الفرنسيين، وهذا ما حصل مثلاً عندما رفض هؤلاء الضباط ضرب الثورة التي اندلعت عام ١٩٤٤م[٤٤].

مرحلة الاستقلال

خرجت سوريا بعد الحرب العالمية الثانية وقد سُلخ عنها لبنان الذي منح استقلاله سنة ١٩٤٣م، كذلك سُلخ عنها لواء إسكندرون بعد ضمه لتركيا في ١٩٣٨م.

تم جلاء القوات الفرنسية والبريطانية عن أراضي سوريا في ١٩٤٦/٤/١٧م، فاعتبر هذا اليوم عيداً وطنياً، وتم إبلاغ مجلس الأمن الدولي بذلك بتاريخ ١٩٤٦/٥/١٦م.

عمدت الحكومة الوطنية بُعيد الجلاء إلى إخماد النعرات الانفصالية، وفرض هيبة الدولة، خاصة في جبل الدروز، ومناطق البدو والأكراد في منطقة الجزيرة وجبال العلويين. غير أنها لم تلق مقاومة إلا في مناطق العلويين، فأرسلت الحكومة قوات عسكرية إلى مركز سليمان المرشد، وخاضت معارك عنيفة مع قوات المرشد التي كانت بقيادة زوجته أم فاتح، وانتهى الأمر بإلقاء السلطة المركزية القبض على سليمان المرشد وجلبه إلى دمشق، حيث أعدم في ساحة المرجة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٦م[٤٥].

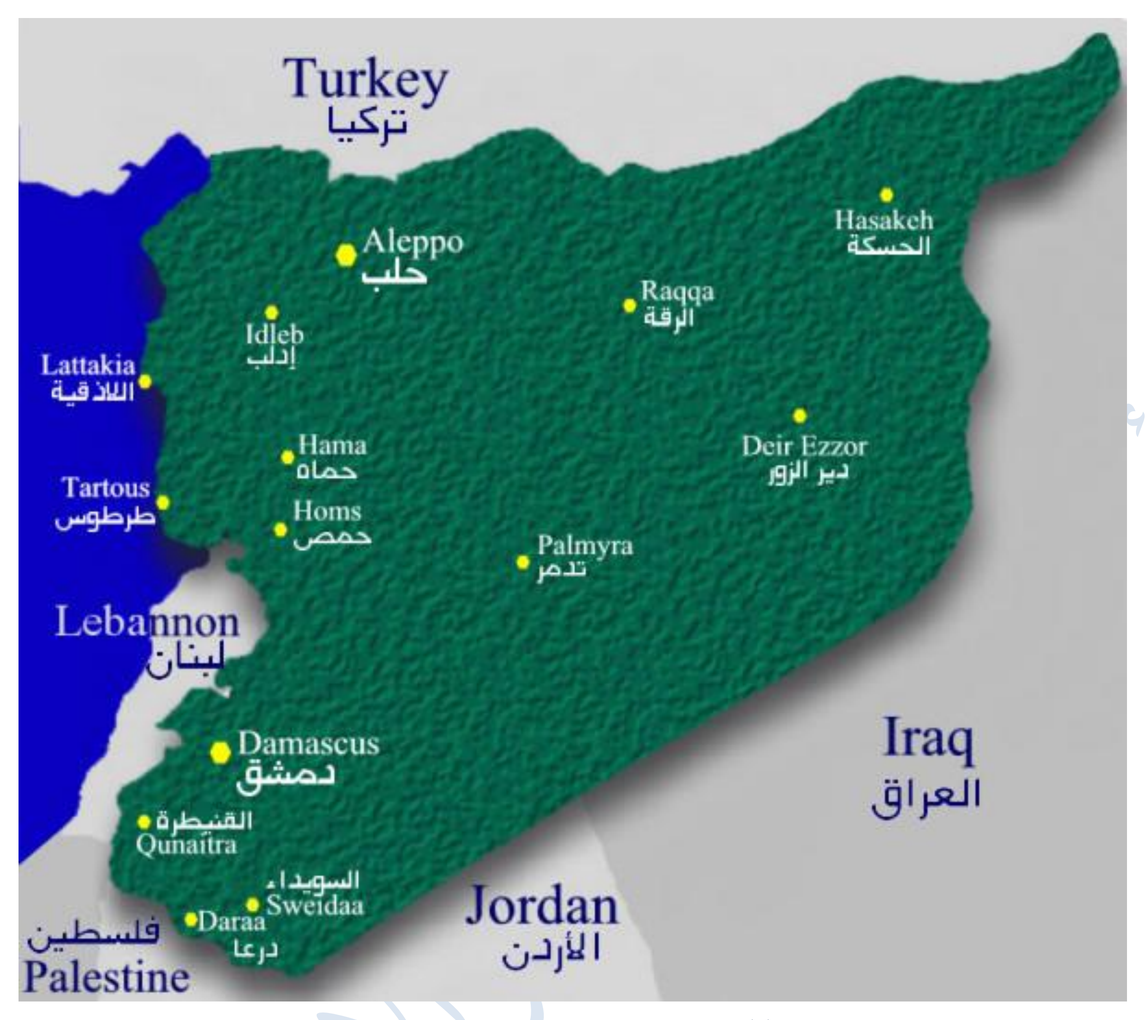
انتهى دور فرنسا المباشر الفج في سوريا بعد الاستقلال، لكنه استمر في رعاية الأقليات ومنهم العلويون، مع فارق في التكتيك؛ فبدل إنشاء دولة مستقلة لهم خططت باريس لتمكينهم من السيطرة على سوريا، عبر "القوات الخاصة للشرق" التي رفضت فرنسا تسريحها، بل أصرت على بقائها واعتمادها نواةً للجيش السوري، لتصبح الانقلابات العسكرية اللاحقة المنفذة بأيدي ضباط من هذه القوات هي مرحلة غربلة وتخلص من العناصر الوطنية لوصول الأقليات في نهاية الأمر للحكم خلال خمس عشرة سنة تقريباً[٤٦].

---

[٤٤] الجيش والسياسة في سوريا: بشير زين العابدين، دار الجابية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ص ٨٩-١٠٢.)

[٤٥] تاريخ سورية المعاصر: مصدر سابق، ص ٨٠.

[٤٦] العلاقة بين فرنسا والعلويين:وثائق وأسرار في "طلب" الاحتلال: مصدر سابق، الرابط: https://goo.gl/DFvU2W



خريطة (٥): الجمهورية العربية السورية - موسوعة المعلومات

الخاتمة

بعد وصول العلويين للحكم على يد حافظ الأسد لم يعد لهم حاجة في الانفصال عن سوريا، إلا أن الأمور تغيرت بعد انطلاق الثورة ٢٠١١م، لتعود مسألة الانفصال للظهور مجدداً. وهنا لا بد من القول إن الاستقلال عن سوريا ليس أمراً مقصوراً على نخب بعينها، وإنما هو عقيدة متجذرة في عقل الطائفة الجمعي الباطني، وما يؤكد هذا ما قاموا به من قتال الثورة السورية حتى آخر رجل فيهم، ومرد هذا القتال الشرس هو رفضهم العيش المشترك مع باقي السوريين، ولا يجوز بحال من الأحوال تجيير قتالهم لخوفهم من بطش النظام أو استغفالهم أو غير هذا من المبررات. الحديث يخص العلويين وحدهم لكونهم مارسوا الحكم دون غيرهم من الطوائف، ولكونهم حرقوا سوريا تقريباً بعد الثورة، لكن هذا لا يمنع أن طوائف أخرى لها ذات رغبات العلويين بالانفصال، الأمر الذي يلقي ظلالاً كثيفة جداً على العرب السنة المناط بهم تشكيل خريطة سوريا الجديدة.

هذه الخريطة ستعود للتشظي ولو بعد حين، فاستقلال أي من المكونات العرقية والدينية الآن أمر غير وارد؛ نتيجة لاعتبارات دولية وإقليمية ليبقى الحال سنوات ضمن دولة مركزية موحدة بالحد الأدنى.

أي إن الخريطة السورية مقبلة ربما على اقتطاعات لعل أسرعها هو ما سيحققه الأكراد في مناطقهم، يأتي بعدهم العلويون في جبالهم، وربما يختلف الترتيب لكن المؤكد أن الخريطة السورية بعد الاستقلال انتهت في ذهن السوريين أولاً، وذهن المجتمع الإقليمي والدولي ثانياً، ولا عزاء للحالمين.

